قراءة في فكر محمد أركون

مخلوف بشير[1]

مقدمة:

يعتبر محمد أركون أحد أبرز وجوه الفكر الإسلامي المعاصر، الذي تصدى ضمن مشروعه الفكري الكبير بالبحث والتنقيب في ظاهرة كثيرا ما اعتبرت من الظواهر غير المفكر فيها وهي الظاهرة الإسلامية. لم يكن موقف أركون كسابقيه من حيث الطرح العلمي، بل تجاوزه إلى البحث في الجذور والمكونات المعرفية ومختلف القطائع التي صاحبت وأطّرت هذا الفكر على مدار قرون من الزمن.مستعينا في ذلك بأحدث ما وفرّته أدوات المعرفة العلمية والإبستمولوجية والنظريةبما أسماه علوم الإنسان والمجتمع، محاولا بذلك تطبيقها على المجتمع الإسلامي من أجل تقديم فهم أعمق وأشمل لملامح هذا المجتمع وبنيته، ضمن الإطار الأنطولوجي التاريخي، أي "تاريخية الفكر" وعلاقته بالراهن الاجتماعي والسياسي في توليده المستمر للمعنى، ولاشك أن هذه العملية ليست بالسهلة. فهي بمقدار ما تتطلبه من تعمق كبير في الفكر الحديث وتعرجاته المختلفة، فإنها كذلك تتطلب نوع من الشجاعة الفكرية والمرونة المنطقية التي غالبا ما تعرض صاحبها للمساءلة السجالية. بل وحتى الجماعية في مجتمعات ما زالت لحد الآن بعيدة عن الحداثة بمختلف أشكالها، تغوص في الأصولية والعصبيات التقليدية. إن المهمة التي كلف أركون نفسه عناء القيام بها لا تعدو مجرد إنطباعات لمفكر يريد أن يصف وضعيات مجتمعية تخترقها التناقضات، بل هي موقف نقدي من الفكر ذاته والمسلمات التي يقوم عليها. إنه الموقف من المجتمع الإسلامي منذ صدور الحدث الإسلامي كلحظة تدشينية كما يسميها هو، إلى وقتنا الراهن بوصفه استمرارا تاريخيا لتلك اللحظة في علاقتها بالحداثة بكل تعقيداتها. إذن فالمشروع الأركوني وفق هذا التصور هو اختبار نقدي للفكر في فهم جدلية الواقع الإسلامي في أبعاده المختلفة: الفلسفية و الإنتروبولوجية والسيولوجية، يا له من جهد كبير لمفكر كبير كرس معظم حياته لممارسة الفكر كمهنة والنقد كهويه لكشف الزيف الذي ألصقته به التلاعبات البشرية.

1- في تاريخية الفكر العربي الإسلامي:

قلة هم، المفكرون النقديون الذين تعرضوا للفكر الإسلامي من منظور"التاريخية"[2] « l'historicité » عدا بعض المفكرين الأوروبيين ذوي النزعة التاريخية المعاصرة. والذين بدورهم خرجوا عن حلقة الإستشراق الفيللوجية، كما رسمته المدارس الأوروبية في القرن التاسع عشر، أمثال كلود كاهين وفرانسيسكو غابريالي وغيرهم، وهم بذلك أسسوا لمرحلة جديدة من القراءة التاريخية للتراث، إنها القراءة التفكيكية التي لا تعتمد منهجا سوى

---

[1] أستاذ مساعد بقسم علم الاجتماع جامعة مستغانم.

[2] يختلف مفهوم التاريخية « l'historicité » عن مفهوم التاريخانية « l'historicisme » فالأول لا يدعي التنبؤ بأي اتجاه مسبق للتاريخ، أما الثاني ينظر إلى التاريخ وكأنه محكوم بفكرة التقدم في اتجاه محدود وثابت و معروف سلفا.

منهج النقد والتمحيص المستند إلى علوم الإنسان والمجتمع، والتي أطلق عليها أركون مشروعه العلمي "بالإسلاميات التطبيقية".

لا غرابة ضمن هذا الإطار أن نجد أركون ينادي بهذا المفهوم أي "التاريخية" باعتباره الخاصية المفتاحة لأي مشروع نقدي يبحث في المجتمعات المختلفة، فموضعة المجتمع ضمن إطاره التاريخي – الإبستمولوجي هو ما يسمح في اعتقاده يتتبع مسار تطوره وفهمه. وهو ما تحقق للغرب على الأقل بسبب تطور المناهج النقدية المعاصرة وبتبلور مدرسة الحلويات التاريخية التي أصبحت تشكل الإطار المعرفي الجديد لأي تفكير علمي حول المجتمع وتعقب بناه ومؤسساته ومفاهيمه. يظهر لنا جليا أن الأرضية التي يريد أركون أن يؤسسها ضمن مشروعه الفكري. هو إنزال الفكر والتصورات الجمعية التي تحكم المتخيل الإسلامي منذ قرون حتى وقتنا الراهن إلى طبيعتها الأنطولوجية وقاعدتها الوجودية، وهو يكرر دائما في كتاباته حول نقد الفكر الإسلامي، "إن استخدام هذه الأدوات الجديدة في التحليل والتنظير والفهم لا يزال ينتظر من يقوم به من أجل دراسة الفكر الإسلامي وإعادة تنشيطه وتجديده، فلا الموقف الأصولي ولا الموقف الفلسفي ينجوان من الصعوبات المتعلقة بكل معالجة نظرية وكل استخدام تطبيقي للجهاز المفهومي الذي ذكرناه آنفا والذي تبلوره الآن بكل نشاط وفعالية علوم الإنسان والمجتمع استنادا إلى التحريات الميدانية الواسعة والمتنوعة والدقيقة أكثر فكثر".[3]

يعني بذلك بشكل أكثر وضوحا استخدام مجموعة مناهج متشابكة من (ألسنيات وعلم اجتماع وأنتروبولوجيا وتاريخ....) تكون أكثر قدرة على غرس الفكر في شبكة الواقع المعقدة وتجذيره فيها. إن هذه المنهجية التداخلية متعددة الاختصاصات (La méthode pluridisciplinaire)، من خلال هذه المنهجية الإبستمولوجية الفكر الإسلامي المعاصر الواقع اليوم تحت ضغوط الثورات الاجتماعية والأصوليات ولعبة الإكراهات العنيدة المتداخلة بين اللغة والتاريخ والفكر وتوظيف الدين لتقوية التقليد المرتبط بالمؤسسات وبخطاب تسويغ السلطة وتبريرها[4]. يستطيع أن يخرج من الدائرة المغلقة التي سجن نفسه فيها، إنه جهد نفسي– معرفي يتطلب من الباحث قدرة على هدم السياجات المغلقة.

2– الإسلاميات التطبيقية وإعادة التفكير في الإسلام:

ينطلق أركون في أطروحاته النقدية للفكر العربي الإسلامي، من مفاهيم رئيسية ثلاث، تصدرت تقريبا كل دراساته وإن كان ذلك بأشكال مختلفة وهي: الدين، الدولة، الدنيا، وبغض النظر عن الرؤى المقارنة التي غالبا ما نجدها في سياق تحليلاته للظاهرة الدينية بشكلها الإنتربولوجي الواسع. إلاّ أنه عمد في المجال الإسلامي على تحديدها وبلورتها مفهوميا وصولا إلى أشكلتها، وهو يعتقد جازما أنها تحتاج أكثر من غيرها إلى شرح وتفسير داخل الفضاء الإسلامي انطلاقا من الخطاب القرآني، "فهي مبلورة فيه إلى درجة انها تحيل إلى بعضها البعض باستمرار من خلال ديناميكية معنوية ومفهومية ذات قوة هائلة، فغالبا ما تذكر مع بعضها البعض أو كمضادات

3: محمد أركون تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة : هشام صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت 1996، ص 23.

4: المرجع نفسه، ص 25.

لبعضها البعض، فالدين مذكور كمضاد للدنيا والعكس صحيح أيضا، وهكذا يشكل الخطاب القرآني شبكة معنوية متكاملة من هذين المفهومين، بل أن هذه القوة المعنوية الخاصة بالتضاد بين الدين و الدنيا لا تزال تظهر بوضوح في الخطابات العربية والإسلامية المعاصرة".[5]

"ينبغي العلم بأن التضاد الكائن بين الدين والدنيا يشمل الدين والدولة أيضا، ضمن مقياس أن الدولة أو الحكومة ليست إلاّ التجلي السياسي لكل ما يخص الدين والدنيا في آن معا"[6]، وهنا تبرز بالتحديد إشكالية السياسي في علاقته بالشرط البشري، وإذا ما أخضعنا هذا التصور النظري إلى الواقع بخاصة الاسلام وكيفية نظرته إلى السياسة، سنجد أنفسنا أنه يجب أن نميز بوضوح بين الجواب النظري والحقيقة التاريخية المعاشة على أرض الواقع. "فهناك الدين المقدس المتعالي الذي يفرض نفسه على الجميع، والدين القابل للتعديل من أجل التكيف مع متطلبات الزمان والمكان، في الحالة الأولى يقصد بالدين العقائد الدوغمائية التي لا تتطور ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها، إنه يخص أيضا العبادات والشعائر، أما في الحالة الثانية فالمقصود بالدين جملة الأخلاق والعادات الاجتماعية ثم القانون المدني والخاص أي ما يدعى بالمعاملات، وهذه أشياء قابلة للتطور والتأقلم مع الظروف المستجدة والعصور المتغيرة وبالتالي فهناك مفهومان للدين، الأول متعال يقف فوق الزمن والمشروطيات الأرضية التاريخية، والثاني مشروط بالظروف والمتغيرات التاريخية". إن هذين القسمين للدين بقدر وجودهما في التصور الإسلامي، "بسبب القرآن الكريم نفسه الذي ترك المجال حرا، للتدبر من أولي[7] الأمر" إلاّ أنه سرعان ما أجهض هذا التصور لصالح التلاعبات الدنيوية ورهانات السلطة السياسية في بحثها عن المشروعية الدينية. وما ظهور علم أصول الفقه إلاّ دلالة على ذلك. فهذا العلم الجديد تعبير عن مرحلة جديدة بدأت تظهر فيها ملامح إحتكار المقدس (جدلية رجال الدين والسلطة) وتوظيف الدين لخدمة السياسي.

3- أركون، نزعة الأنسنة والسياق الإسلامي:

ما من شك أن تصور أركون يعتبر امتدادا للفكر الإنسانوي المثمر الذي سيطر لمدة طويلة على الحضارة العربية الإسلامية في فتراتها المزدهرة، والتي للأسف لم تستمر في الإبداع بسبب عديد العوامل والظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية. التي لا يسعنا المجال للخوض فيها. ولهذا الغرض بالذات كرس أركون أول أطروحاته العلمية في جامعة السربون للبحث في هذه النزعة الانسانوية التي اختفت من ساحة الفكر الإسلامي[8] والتي لم تستطع أن تحل محلها نزعة أخرى مشابهة. بل تبعها الانحطاط والتخلف الحضاري والأصوليات الصاخبة بمختلف أنواعها. "فإذا ما اتفقنا على القول بأن الموقف الإنساني ينبغي أن ينوجد اليوم أكثر من أي وقت مضى في جميع الثقافات،

---

[5]: محمد أركون، تحرير الوعي الإسلامي ""نحو الخروج من السياجات الدوغمائية المغلقة، ترجمة هاشم صالح، الطبعة 1، دار الطليعة بيروت 2011، ص 71.

[6]: المرج نفسه، ص 72.

[7]: المرجع نفسه، ص 74.

[8]: انظر في هذا الصدد أطروحته للدكتوراه المترجمة إلى العربية والموسومة: نزعة الانسنة في الفكر العربي الانساني، دار الساقي، بيروت 1995.

فإنه ينبغي أن نتساءل عن شروط إمكانية نشوء وتطور مثل هذا الموقف في مجتمعات "إسلامية"، تشهد اليوم عودة متوحشة ومخفية للعامل الديني، إن "مراقبي شؤون الإسلام المعاصر والمختصين بدراسته لم يلحظو بما فيه الكفاية الشكل الأساسي الثاني: وهو أن الفاعلين الاجتماعيين الجدد الذين ينتسبون إليه يحددون له وظائف آنية، ظرفية، عابرة، إيديولوجية، بعيدة جدا عن القيم الدائمة، فوق الثقافية، والفوق تاريخية المشتركة للظاهرة الدينية، فالإسلام المعاصر كما بينه أركون في عديد دراساته أصبح يشكل ملجأ للهوية بالنسبة للكثير من الشعوب والأفراد المقتلعين من جذورهم، كما أنه يشكل مأوى لكل أنماط الناقمين الذين يعيشون في مجتمعات صودرت فيها الحريات المدنية، ويشكل أخبرا وسيلة لبعض الطموحين الذين تجذبهم النجاحات الاجتماعية أو السياسية أو الكهنوتية الدينية. ولكن هناك أيضا مؤمنون مخلصون حقا ويكرسون أنفسهم كليا لتعميق التجربة البشرية للالإلهي.[9]

"إن الثقل البشري والسياسي للأديان يجبر الباحثين العلميين والمسؤولين السياسيين على إعادة النظر في العلاقات الكائنة بين العامل الديني والعامل السياسي والعامل الفلسفي، ولكن الشيء الملاحظ هو التالي: إذا كانت علوم الإنسان والمجتمع قد أنجزت وراكمت الكثير من المعارف الموثوقة عن أديان عديدة، فإن الفكر الفلسفي والأنظمة اللاهوية المختلفة لم يصبحا اليوم أكثر قدرة على تجاوز الانقسامات القديمة كما كان عليه الحال في النصف الأول من هذا القرن، فماذا يمكن أن نقول عن حالة الإسلام اليوم ؟"[10] ، وهو يعاني مختلف أشكال الإنغلاق والأصولية. بخاصة أن المنعطف التاريخي الحالي متأثر جدا بالإسلام السياسي الحركي والاحتجاجات والشعارات، ولهذا السبب فإن قسما كبيرا من المثقفين يفضلون تعليق الموقف النقدي، بل وحتى التخلي عنه صراحة لكي ينخرطوا في معمعة إيديولوجيا الكفاح، فهم يعتبرون أن لها الأولوية"، لا ريب في أننا بحاجة إلى نزعة إنسانية واسعة تصلح لجميع البشر والبحث عنها ملمح ضروري حسب رأي أركون برغم إرادات الهيمنة التي تفرضها القوى العظمى، وهنا تكمن بالذات الإشكالية الجوهرية التي يؤكد أركون طرحها وهو بصدد البحث عن حلول لها من خلال إعادة أشكلتها المستمرة لتجاوز الأطر المذهبية الضيقة التي سيطرت على فكرنا الإسلامي على مدار قرون والبحث عن إنسانوية جديدة منفتّحة على الشرط البشري بكل تجلياته وإكراهاته التاريخية.[11]

4- من نقد العقل الإسلامي إلى تحرير الوعي الإسلامي:

يستهل أركون كلامه في إحدى فقرات كتابه: "للأسف لا أستطيع القول بأن أعمالي عن نقد العقل الإسلامي، تحظى بنفس الاهتمام الذي حظيت به أعمال بول ريكور. فعلى الأقل كان الرجل قد تمتع أثناء حياته بثقة كبيرة في أوساط جمهور طويل عريض، يقرأ كتاباته ويعلق عليها في الغرب، أما الباحث المفكر النقدي الذي

---

[9]: محمد أركون، معارك من اجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، ترجمة وتعليق هاشم صالح، الطبعة 1، دار الساقي، بيروت 2001، ص 75-76.

[10] : المرجع نفسه، ص 74.

[11]: أنظر حول هذا الموضوع كتاب: M. Arkoun : L'humanisme dans l'islam, Barsakh ed . Alger, 2005.

يحاول استكشاف ذلك المجال الشاسع الواسع للإسلام بشكل علمي وتاريخي، فلا يمكن أن يحظى بمثل هذا الاستقبال الإحتفائي. وهذه هي حالتي أنا للأسف الشديد"[12]. ماذا يمكن أن نفهم من كلام مفكر كبير مثل أركون. وهو يحاول أن يشخص وضعه الفكري مقارنة بمفكر يشبهه في المجال المعرفي. لكن ضمن فضاء ثقافي وفلسفي آخر وهو الفضاء العلماني الغربي والديمقراطي، يحيلنا أركون هنا تحديدا إلى إشكالية إبستمولوجية كبيرة تحتل مكانة في الفضاء المعرفي المعاصر وهي مدى عمق المسافة الإبستمولوجية التي تفصل بين الفضاء العربي – الإسلامي والفضاء الأوروبي – العلماني، ومدى قوة القطيعة الإبستمولوجية التي جعلت مجتمعا بعينه يدرك أهمية الفكر النقدي ومجتمعا آخرا[13]. إذا أدركه فإن ذلك لا يتسنى سوى لقلة من الخاصَة كما يحلو لأركون تسميتها من خلال بحثه في التراث، ويقصد بها النخبة الهزيلة التي لم تستطع التواصل مع مجتمعها فما بالك بالمجتمع كله. إن المشروع النقدي الذي تزعمه أركون لاستكشاف بنية العقل الإسلامي "لا ينحاز لمذهب ضد المذاهب الأخرى لا يقف مع عقيدة ضد العقائد التي ظهرت أو قد تظهر في التاريخ ؟ إنه مشروع تاريخي ، أنتربولوجي في آن معا. إنه يشير إلى أسئلة أنتروبولوجية في كل مرحلة من مراحل التاريخ، ولا يكتفي بمعلومات التاريخ الراوي المشير إلى أسماء وحوادث وأفكار وآثار دون أن يتساءل عن تاريخ المفهومات البنيوية المؤسسة كالدين والدولة والمجتمع والحقوق والحرام والحلال والمقدس والطبيعة والعقل والخيال والضمير واللاشعور والمعقول والمعرفة القصصية (أي الأسطورية) المعرفة التاريخية والمعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية..."[14]، ثم إن مشروع نقد العقل الإسلامي لا يكتفي بالبحث عما يخص الإسلام كدين وفكر وثقافة ومدنية وتاريخ ونموذج من نماذج الإنتاج التاريخي للإنسان والمجتمعات، وقد فرض الاستشراق هذه النظرة المنكبة على "الإسلام" والمتواطئة مع نظرة المسلمين أنفسهم، إذ أجمع كلاهما على أن هناك "اسلاما" جوهرانيا ذاتيا لا يقبل التغيير ولا يخضع للتاريخية ولا يزال مستمرا هو هو كالأقنوم الإلهي يؤثر في الأذهان والمجتمعات ولا يتأثر بها، وقد بلغ هذا التحجر العقلي اليوم نوعا من التطرف التنظيري في الأدبيات المتراكمة عن الإسلام الأصولي الراديكالي بقلم أبرز المتخصصين في الإسلاميات والعلوم السياسية **!!**...[15]

إن مشروع نقد العقل الإسلامي، عند أركون لم يكتف بالإسلام كمدونة دينية، بل تعداه إلى العقل اللاهوتي عند أهل الكتاب والبحث في الجذر المشترك بين هذه الكتب السماوية ليتحول بذلك هذا المفهوم إلى مفهوم أنتروبولوجي–تاريخي، يبحث في أركيولوجيا المفاهيم وأنظمة الفكر ومختلف الإبستيميات والقطائع التي حددت مسار هذه الأنظمة العقائدية على مر التاريخ، ويزداد الأمر اتساعا بنقد الحداثة التي بنيت عليها الحضارة المعاصرة وما بعد الحداثة التي باتت تؤسس لمفاهيم جديدة، لم تكن مسبوقة في تاريخ أنساق الفكر ما اصطلح

12: محمد أركون، نحو نقد العقل الإسلامي، ترجمة هاشم صالحن طبعة 1، دار الطليعة بيروت، 2009، ص 55.

13: أنظر: هاشم صالح: مخاضات الحداثة التنويريو ""القطيعة الابستمولوجية في الفكر والحياة""، طبعة 1، دار الطليعة، بيروت 2008، ص 95.

14: محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر: "من فيصل التفرقة إلى فصل المقال"، ترجمة هاشم صالح، طبعة 3، دار الساقي، بيروت 2006، ص 16.

15: المرجع نفسه، ص 17.

عليه أركون "بالعقل المنبثق الصاعد"، وهو عقل يؤسس لحداثة جديدة أساسها النقد بحيث تتجاوز الحداثة المعاصرة والانتقادات الموجهة لها، (ما بعد الحداثة)، وتترك المجال في الوقت نفسه للإمكانات الهائلة للعقل النقدي حتى يقوم بوظيفتة الفلسفية من أجل تحرير الكائن البشري من كل التراهات والتصورات الخرافية التي لا تزيد الحياة الإنسانية سوى تقهقرا.

خاتمة:

إن التعامل مع قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ليست بالعملية السهلة من الناحية المعرفية، فعملية التداخل بين الإيديولوجي والمعرفي والتقاطع بينهما في كثير من الحالات قد يحول دون تحقيق الموضوعية والحياد المعرفي الذي ترنو إليه كل الدرسات، بخاصة التي أخذت على عاتقها الاهتمام بالشأن الإنساني، وبرغم ذلك فقد أحرزت العديد من الدراسات تقدما ملحوظا من حيث الطرح النقدي الموضوعي الملتزم بالدقة والتمحيص المعرفيين و لا مندوحة أن العديد من المفكرين الجريئين هم الذين تصدوا لتلك المهمة الصعبة في مجتمعات موغلة في المقدس بكل تفاصيله الدقيقة وبعيدة عن المعرفة الإبستمولوجية الصارمة كما هي موجودة في الغرب. هذا هو المبحث الذي كرس أركون جل حياته من أجل استكشاف خباياه وتفكيك عناصره من أجل فهمه. فباعتباره عالما موسوعيا ملتزما بهموم مجتمعه ومطلعا بعمق على مختلف الثقافات فإنه انخرط وبشكل عميق في تطبيق الآليات الحديثة لعلوم الإنسان والمجتمع على ما أسماه بالمجتمعات المشمولة بالظاهرة الإسلامية، محاولا بذلك الكشف عن زيف التصورات الإيديولوجية – اللاهوتية، التي سيطرت عليها منذ قرون وعلاقتها بالفاعلون الإجتماعيون المختلفون الذين ما فتئوا على مر التاريخ يتلاعبون بالمقدس والمشروعية الدينية موظفين إياها في الرهانات الدنيوية والكشف في الوقت نفسه عن الترسبات التاريخية التي أصبحت جزءا مركزيا ضروريا لاشتغال المخيال الجماعي. إنها العقلية الثاقبة لمحمد أركون زعيم التنوير الإسلامي بعد ابن رشد التي استعملت كل أدوات الحداثة من أجل إبراز صورة الإسلام الحقيقية ونزعته الإنسانوية المغيبة.